

الأيديولوجيا والتربية

دكتور عبد السميع سيد أحمد *

الأيديولوجية كلمة منفردة ، مخيفة • لأنها تعنى فى اذهان البعض التشنّج والتعصب وترديد النصوص المحفوظة، وتنطوى على شغب يهدد الاستقرار الاجتماعى • وهى كلمة محببة ، اثيرة لأنها تعنى فى اذهان البعض الاخر وضوح الموقف من العالم ، والقدرة على تغييره الى عالم افضل • وقد أعلن بعض مفكرى الغرب موت الايديولوجية لكنها لم تمت • وانما على العكس ، ازدادت ازدهارا ، خاصة فى العالم الثالث • اتته فلول ايديولوجيات الغرب، أو خرجت ايديولوجياته الخاصة من مكنها • وصارت بمثابة كلمة السر الى التغيير •

وهذه الدراسة محاولة للاقترب من الايديولوجية كما يظهر وجهها القبيح ، وجهها المقبول • ليس للدعاية ضد الايديولوجية ، أو للترويج لها بصفة مطلقة ، وانما محاولة لتأكيد الايديولوجية الواضحة لمجتمعنا ، ثم لفكرنا العلمى عامة والتربوى على وجه التخصيص • وهى محاولة للربط بين العام والخاص ، ان تبعث الى كتابة تلك السطور ما نلقاه فى هذه اللحظة التاريخية من تمزق وشعور بالعجز ازاء الاحداث فى عالم سلمنا بأننا لا نملك شيئاً من مقدراته • ويثير هذا الشعور العام ، الشعور الخاص بعجزنا عن أن نكون أصحاب فكر متميز فى مجال التربية ، وتشنت جهودنا البحثية فى أشكال هلامية فى صورتها العامة ، بلا موقف ، وبلا أولويات • وفى مجال تقرير الحقائق لا جدوى من التجمل وممالة الذات •

وربما كانت اثاره السؤال عن ايديولوجيتنا التربوية أكثر قيمة من محاولة الاجابة ، لأن تعميق المشكلة اجدى من تقديم اجابات مبتسرة ، ولأن السؤال اذا أعقبه مزيد من الأسئلة حدث « التكثيف الشعورى » المطلوب لكى نفعل شيئاً ، حتى لا نصبح نحن الجزء الاكبر من المشكلة •

(*) مدرس أصول التربية بكلية التربية بجامعة عين شمس •

وتبدأ الدراسة بعرض الدعاوى المضادة للفكر الايديولوجى عامة ، ثم نقدم الايديولوجية بنظرة جديدة ، نخلص منها الى رؤية للصورة الايديولوجية العامة لمعرفةنا التربوية فى مصر ، ثم ننتهى بعرض عينة من القضايا العلمية الايديولوجية التى تستحق عناء التفكير .

وفى تعريف الايديولوجية نأخذ من التعريفات أبسطها ، وهو أنها « نسق من الافكار يشكل نظرة عامة للحياة ، على مستوى المجتمعات والجماعات والأفراد » . ثم نترك المفهوم ينمو مع اضطراد السير فى الدراسة .

الايديولوجية : نظرة معادية :

اكتسبت الايديولوجية معنى دونيا مازالت تعاني منه الى الآن ، ويشكل جانبا هاما فى الهجوم عليها . وكانت البداية منذ أطلق وصف الايديولوجية على جماعة من الفلاسفة كانت تعارض طموحات نابليون الامبريالية ، على اعتبار أنهم حاملون غير علميين . فصارت الايديولوجية صفة لكل فكر يفترض أنه فكر عقيم حين يوضع فى محك التطبيق والممارسة فى الساحة السياسية خاصة . أو يهتم بأنه فكر يتأمل الواقع تأملا مثاليا بوعى زائف ، حتى وأن كان فكرا يتعلق بالمعرفة يتوالد ويتكاثر من خلال تقليد أكاديمى مكتف بنفسه . أى ان كل الفلسفات وكل الانساق الفكرية ايديولوجيات ان كانت لا ترتبط بالفكر الحقيقى السائد فى المجتمع ، وتتعالى على الواقع المعاش ، وليس لها من ثمر فى الحياة العامة . وربما كانت هناك صلة بين نظرية يكون عن الوهم idola والايديولوجية . الاوهام عند بيكون « أشباح » أو « معتقدات سابقة » هى مصادر لخطأ الفكر . وتتمثل تلك المصادر فى الطبيعة الانسانية ككل (اوهام القبيلة) ، أو فى الفرد ذاته كفرد (اوهام الكهف) ، أو فى اللغة التى نستعملها (اوهام السوق) ، أو فى الاشخاص الذين نتأثر بهم ونعتنق آرائهم (اوهام المسرح) .

والايديولوجى على هذا النحو شخص لم يستطع ان يقاوم الاخطاء التى تقوده اليها طبيعته كإنسان ، فهو يؤمن بالخرافة بدلا من التفكير العلمى ، وهو لم يتفهم نفسه تفهما واعيا ليعرف ماذا يريد ويقصد اليه مباشرة بدلا من تحويل طاقته الى مثاليات زائفة ، تتكون من كلمات لم يعمل فيها فكره

بالتحليل المنطقي ليتبين له خواؤها وبعدها عن الواقع . وانقاد لاشخاص
ذوى جاذبية شخصية أو فكرية واحاطهم بهالات من العظمة والتقدیس ، حيث
تصور أنهم يعبرون له عن وجوده أكثر مما يستطيع هو . ومن ثم فإن
الايديولوجية ما هى الا حد وسط : بين كذبة بسيطة ، وبين خطأ غير متعمد
ناجم عن غفلة . هى تكوين مفاهيمى مشوه وخداع غير متعمد لأن له مسببات
غير واعية . حين ننظر الى خصم لنا فنرى سلوكه يفتقد الصدق ، ونفهم
أفكاره على أنها مجرد وظيفة لوضعه الاجتماعى ، فاننا فى هذه الحالة
نطلق عليه وصف نابليون : أنه ايديولوجى (١) . وعلى هذا النحو نهاجم
الايديولوجيا فى جوانبها المختلفة . فلننظر نموذجاً لهذا الهجوم .

الايديولوجية اسطورة :

لكل ايديولوجية أسطورة تقع فى مكان القلب منها وتتفرع عنها بقية
الأفكار . فهناك قصة متكررة فى كل الايديولوجيات ، قصة الابن الذى
يفضله أبوه على اخوته ويعطيه بركته نتيجة لتميزه الخاص ، لا نتيجة خلل
نفسى فى شخصية أبيه يؤدى به الى التفرقة فى معاملة ابنائه . وتستثير لدينا
تلك القصة ما نكتب فى اللاوعى من تحرقاتنا وقلقنا لنكون الاطفال المفضلين
عند الأب ، أو الرئيس ، أو الزعيم . وهى نفس قصة « سندريللا » التى
نبذتها زوجة أبيها ، فاحتضنتها احدى الحوريات كابنة لها ، وفازت على كل
اترايها ، ثم يعجب بها الأمير ويحبها لأنها تستحق الحب أكثر من غيرها .
تلك القصة التى تجسد احزان الاطفال والامهم هى نفسها أسطورة الاحزاب ،
كل حزب يطمح أن يكون الطفل المحبوب لدى الجماهير . وهى نفسها وهم
المتقنين ، يريدون أن يكونوا الفئة المدللة بين فئات الناس ، فيهدأ شجارهم مع
التاريخ الذى عبر عنه افلاطون خير تعبير حين طالب بالحكم الفيلسوف ،
وبالامتياز الاجتماعى للاكثر ذكاء وعلماً على كل الطبقات (٢) . ومن خلال
الفكر الاسطورى ترى كل ايديولوجية لنفسها مهمة تاريخية مقدسة . الماركسية
تحمل الرسالة التاريخية « للكرهية » ، لأن العنف طاقة تتولد عن الكراهية
لتغيير المجتمع عن طريق الثورة . والابن المفضل لحمل تلك الرسالة هو طبقة
« البروليتاريا » . والنازية تحمل رسالة تحقيق الدولة العالمية لأن القوة
الكونية الاعظم تتطلب النظام ، ومن خلال عملية التطور التاريخى تتجسد
الحقيقة العظمى فى الدولة العالمية ، والافراد ما هم الا أدوات فى يد التاريخ
(دراسات تربوية)

ليس عليها الا أن تطيع وتسير فى الطريق المحتوم المحدد لها سلفا ، حتى يتحقق النظام وتظهر الدولة العالمية • والجنس « النوردى » هو الجنس المختار لتحقيق تلك الرسالة • تتحول الطبقة ، أو تتحول الأمة الى « جماهير ، مشخصة تقع فى قبضة قوية مجردة ، وتسير نحو أهداف نهائية مجيدة (٣) »

الايدولوجيا تزيف للمعرفة :

وتحاول الايدولوجية أن تغلف أسطورتها برداء الفلسفة والعلم • لذلك يمكن تعريف الايدولوجية بأنها توليفة من المعارف غير المتخصصة تحاول عن طريقها أن تثبت أنها مستنبطة من الوجود الانسانى ومتسقة معه • وبهذا الرداء المعرفى تظهر وكأنها أقرب الى حقيقة الدراما الانسانية ، فتصبح الايدولوجية الاجتماعية وكأنها ايدولوجية كونية مطلقة • لقد ظهرت أفكار هيجل ، وماركس ، وكومت ، وسبنسر على أساس ان كلا منهم قد توصل الى حل الشفرة الخاصة بقانون التقدم ، التى يمكن استنباط طبيعة المجتمع والمستقبل منها • مع أن كلا منهم مختلف عن الآخر اختلافا بينا (٤) • واستعمل كل منهم التاريخ كما يريد ، لأن كلا منهم راح يعكس أضواء تفكيره الى الخلف ليكتشف ماضيا جديدا ، فكانت الحويلة فى النهاية كثيرا من « المواضى » وكثيرا من « المستقبلات » بحيث يتطلب كل مستقبل جديد ماضيا جديدا ، كان الواحد فيهم يتوهم أنه يقرأ التاريخ من بدايته ، بينما كان فى حقيقة الأمر يقرأه من نهايته • والقراءة الكلية للتاريخ دعامة أساسية فى بنية الايدولوجيا ، يساندها ما يتاح من كشوف علمية وأفكار جديدة • كانت كشوف نيوتن ودارون واينشتين وهيزنبرج معارف تسلفت عليها الايدولوجيات من كل اتجاه ، بينما الكشوف العلمية واحدة • الايدولوجية تطوع المعرفة لما تريد بينما تبد وكأنها نتاج منطقى للمعرفة • أن الايدولوجية تغطى نفسها بالعلم لتبرير المصالح • ليست المصالح الاقتصادية فقط ، ولكنها قد تكون مصالح جماعات ذات أوضاع اجتماعية معينة ، مثل مصالح الاقليات التى تسعى الى الصعود الاجتماعى والتمايز ، أو مصالح جماعات القوة ، أو مصالح العمال أو المثقفين ، أو مصالح جماعات منغلقة تعادى الآخرين • الايدولوجية فى مفهومها الكلى مجموعة من المعتقدات مطعممة بالعواطف تبغى التحول الى أسلوب شامل للحياة ، أو رؤية شاملة للواقع ، أو التزام بقضية ، أو ارضاء لمشاعر شخصية عميقة • ومن ثم فهى تخدم

- كنظام عقائدى - شتى الاتجاهات ، وتعطى الشرعية لمعتنقيها فى التخريب أو البناء ، والمحافظة أو التغيير .

ومن طبيعة الايديولوجية افتقادها التسامح مع وجهات النظر المخالفة ، لأنها أن لم تدع امتلاك الحقيقة وحدها تفككت كنسق فكرى ، ولأنها تكونت أصلا مهاجمة للمواقف الفكرية المغايرة ، وتستمد وجودها الخاص من ذلك الهجوم . ومن حيث هى نسق متكامل ، فإنها تستبعد أى ادراك للواقع غير ادراكها الخاص ، لأنها تختزل الواقع وتجرده ليتحول الى مذهب يمكن أن يشرح كل شيء عن طريق الاستنباط من مسلمة واحدة أساسية . فإذا تهافتت الايديولوجية فى الدفاع عن تلك المسلمة ، أنهار البناء كله بكل تفاصيله ، ولهذا يكون التعصب ، (٥) بينما تبدو وكأنها نتاج منطقى للمعرفة .

الايديولوجية اسقاط نفسى من جانب الايديولوجى :

تحاول الايديولوجية « أنسنة » العالم ، على عكس العلم نفسه الذى يحاول خلع تلك « الانسنة » من منهجه . قضى العلم ردحا طويلا من الزمان ليقضى على مفهوم مثل « الغرضية » فى سلوك الطبيعة ، أو على مفهوم « الاحياء » بالنسبة للأشياء . وتعود الايديولوجية وفى ركابها مثل تلك المفاهيم : فالكون يمكن أن يصبح السيرة الذاتية للعقل المطلق . وتطور الطبيعة . والتاريخ يسير بالاحتمالية الاقتصادية لتتبوئ الطبقة العمالية مكان السيادة ، ثم ليأخذ كل بقدر حاجته . ولا يختلف هذا الوضع عنه فى الايديولوجيات البسيطة . إذ يصور الاحباش ألتهتهم سود البشرة فطس الأنوف . ويصور التراقيون ألتهتهم زرق العيون حمر الشعور (٦) .

أن الايديولوجى يرمى فى الحقيقة الى صياغة العالم على هواه ، مشكلا بسماته السياسية أو العنصرية أو القومية . فالشيوعى يسقط من لدنه فكرة الكون الذى يتطور عن طريق الثورات من خلال قفزات نوعية فى لحظات تاريخية حاسمة ، أو تراكمات كمية تتحول الى تغيرات كيفية . ويحاول أن يرى فى القوانين الطبيعية ما يراه فى الاحداث الاجتماعية . والفاشى يرى الهرمية والتسلطية فى الناموس الكونى الصارم ، حيث تتسيد الشمس حركة الكواكب فى تسلطية كونية . والفوضى يتعلق بفكرة « النسبية » فى الكون كله ، ولا

يرى فيه الا ركاما من الفوضى التى يتوهم الآخرون أنها قمة النظام • والليبرالية تعكس الفكرة النيوتونية عن الكون ، فالمجتمع يتحرك حركة ذاتية وهو خالد فى حركته مثل ماكينة لا تتوقف وتولد طاقتها داخليا ، وتحفظ النظام الضرورى لاستمرارها وبقائها ، تماما كما يحدث بين الكواكب والنجوم • أما القوة المحركة للمجتمع والتى تقوم باصلاحه اصلاحا ذاتيا ، فهى متأصلة بطبيعتها فى العقل المستقل للفرد ، وفى تحرر ارادته الذاتية ، لأن المجتمع فى النهاية مجموع أفراد • وحركة المجتمع تعنى التوازن والتناغم فى العلاقات المكونة لاجزائه كما هو الحال فى الطبيعة •

يتصور الايديولوجى النظام السياسى كظاهرة مصغرة للكون ، والنظام الكونى كظاهرة مكبرة للسياسة (٧) •

الايديولوجية فكر نفعى :

النفعية مبدأ ايديولوجى يغلف كل المبادئ التى تنادى بها • فالفكرة الفلسفية الواحدة يمكن أن تستخدمها كل الايديولوجيات ، حيث تتحرك الفكرة فى مسار تاريخها الايديولوجى من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، وبالعكس • ويثبت الايديولوجيون أن تلك الفكرة لها قدرات متعددة حسب استعمالها الايديولوجى : كانت فكرة بنتام التى تقول بأن الغرض من أفعال الناس يجب أن يكون السعادة القصوى لأكبر عدد منهم ضالة لكل الاجنحة الايديولوجية • أقام الاشتراكيون مطالبهم على أساس دعوتهم للسعادة القصوى للمجتمع • وتحول جون ستيورات مل من الرأسمالية الى الاشتراكية لأنه شعر أن نظام الملكية الخاصة قد اخفق فى تقديم السعادة لأكبر عدد من البشر • واحتضنت الطبقة الوسطى الفكرة نفسها لتعبر عن مصالح الرأسمالية المألقة ، بشرط أن تكون الملكية من خلال المنافسة الحرة • وكان انجلز يعتبر نفسه يساريا من اتباع بنتام ، لأنه يرى بنتام أكبر الفلاسفة العمليين ، ويرى أفكاره ملكا خاصا للبروليتاريا • وحين ظهرت البرجماتية كفكر ثائر ضد كل اليقينيات والثوابت ، داعية الى الايمان بالتغير ، واعتبار النواتج العملية محطا للأفكار ، لقيت أفكارها انتصارا واسعا فى كل الاتجاهات • كانت ضالة الفاشستية على ايطاليا ، حيث تأثر بها الشباب فى دعوتهم الى الحركة والفعل ، لأن العارف ليس مجرد ملاحظ ، لكنه فاعل • ووجد فيها موسوليني النموذج والشعار

المناسب للفاشية ، فهي ساندته فى احتقاره « للبرلمانيين اللفظيين » الذين يقفون ضد فلسفة الفعل المستمر . ودعا روزفلت الى الشجاعة فى فهم ماركس ، لأنه جعل أدائية ديوى عقيدة للمادية الديالكتيكية . وزار ديوى نفسه الاتحاد السوفيتى ورأى جوهر الثورة هناك تحرير الشجاعة والطاقة والثقة بالحياة ، وتحرير الناس لكى يعوا أنفسهم كقوة حاسمة فى تشكيل مصائرهم (٨) . كل الافكار مطروحة على الساحة ، وما على صانع الايديولوجية الا أن يختار منها ما ينفع ليثبت ما يراه .

الايديولوجية بلاغة لفظية :

تعتمد الايديولوجية فى لغتها على الكلمات الاخاذة التى تستثير الحماس وتدفع الى الحركة . وان ارادت أن تكتسب ثوبا معرفيا فهي تستعمل المفاهيم فى تسيب ولا تتحرى الدقة ، لأن الدقة قد تكون ضد دعوتها . نحن نواجه بعبارات مثل « لن يخسر العمال سوى اغلالهم » و « حرية رغيف الخبز ضمان لحرية الانتخاب » و « الجماهير العريضة » و « البروليتاريا الكادحة » و « البورجوازية العفنة » و « النضال الثورى » و « اليمين الرجعى » ، والقائمة طويلة بالمسكوكات التى تجعلنا ندرك بسهولة أن محدثنا تحدث ايديولوجية ، ويفكر بالايديولوجية ، لأنه يستعمل شعارات فضفاضة لا تقوى على مواجهة التحليل المنطقى أو اللغوى ، حيث هى فى للحقيقة تخاطب الوجدان أكثر مما تخاطب العقل . بل ان هيجل نفسه الذى كان مصدر الهام الايديولوجيات على تنوعها وتباينها ، يستخدم لغة بعيدة عن الدقة لا يمكن قبولها الا بالكثير من التجاوز والتساهل . فهو لا يلتزم معنى واحدا للفظ الواحد ، وتفقر جملة الميتافيزيقية الى المعنى وتخلو من الاتساق . مصطلح « التناقض » مثلا الذى يمثل مفهوما رئيسيا فى فلسفته ، لا يعبر فى واقع الأمر عن أى تناقض ، فهو قد يكون تضادا أو اختلافا بينا أو تعارضا ، لكنه ليس تناقضا بالمعنى الدقيق ، أى بمعنى أن يجمع الشئ الواحد ، فى الوقت الواحد ، ومن الوجهة الواحدة ، بين الصفة ونقيضها معا . ولم يعط ماركس تعريفا دقيقا للطبقة ، وتركها للنظرين من بعده حتى الآن يجهدون أنفسهم فى تحليلها . ليست الايديولوجية بحثا موضوعيا للعالم ، وانما هى تبسيط مخيف للعالم . تشخص المشكلة ، وتضع العلاج ، وتقدم الحلول الجاهزة لكل المشكلات . من بدء وجود الانسان على الأرض ، الى متاعب حياته اليومية

على مستوى حياته الخاصة والعامة • ولأن الايديولوجية فى خصومة مع العالم - كما هو قائم بالفعل - فهى تعبئ عباراتها بالانفعالات الساخنة ، وبالعداء نحو الآخرين ، ليس كل الآخرين ، وانما من لا يقفون فى الصف • اما أن تهاجم الشيوعية الرأسمالية ، واما أن تهاجم الرأسمالية الشيوعية • وبين الايديولوجيات الكبرى تقف الايديولوجيات الصغرى تؤدى دورها وتهاجم الجميع •

الأيديولوجية هى لغة التبرير والدفاع والبلاغة اللفظية لأنها تريد أن يفكر الناس بالكلمات حيث يجب أن يفكروا بالأرقام ، وان يفكروا بالألفاظ حيث يجب أن يفكروا بالمفاهيم • وحين تنتكس الثورات تظهر من جديد ايديولوجيات الماضى ، ولا يتغير شئ الا أن تفسح البلاغة المستحدثة مكانا للبلاغة القديمة ، ويستمر الصراع هجوما ودفاعا بين أنواع البلاغة ، بلانتائج عملية حاسمة حين تقع المجتمعات فى فخ الايديولوجية ، وحيث يتم تخصيب الأفكار بعقائد حماسية متوهجة ، فتتحول الأفكار الى أسلحة خطيرة تؤدى الى أعمال العنف ، وتضيق معالم الطريق فى الفوضى الفكرية الناشئة عن الصراع (٩) •

الأيديولوجية تعبير عن اللاعقلانية :

تقدم الايديولوجية نفسها وكأنها اعادة تنظيم للعالم على أساس عقلانى ، لكنها تقوم صراحة أو ضمناً على مفهوم للانسان من حيث هو كائن لاعقلانى • كان « هنتر » يفاخر بأنه يستطيع أن يطعم شعبه كل ما يشتهى ، ولكنه لا يفعل ، لأن شعبه يريد ما هو أعز من الطعام ، يريد الشعور بالأمن والانتماء ، وتحقيق حلم « ألمانيا فوق الجميع » • وكان موسولبنى يؤكد أن قيادته أكثر ديمقراطية من أية ديمقراطية أخرى فى الغرب ، لأنه يعبر عن الناس فى أدق حاجاتهم ، وهى ليست الحاجة الى الطعام والملبس والمأوى ، لكنها حاجة القطيع الى التجمع والشعور بالقوة • وكان منظر الفاشية الكبير (فالفيريد وباريتو) يرى الانسان المعاصر مغتربا ، يزداد شعوره بالحاجة الى اليقين حدة ، فتزداد حاجته الى الغيبيات والخرافة ليتكامل مع بنى جنسه • والغيبيات والخرافة تقوم مقام الحرية ، لا فرق بينها وبين الفكر المنطقى ، ولا فرق بين ايديولوجية وأخرى منافسة ، الا اشباع حاجات الجماهير الى الطمأنينة ، لأن طبيعة الانسان فى الأساس تحكمها حتميات لا عقلانية • وفى متخلفات اللاعقل يوجد

الاستمرار ، لأن تلك المتخلفات ثابتة نسبيا ، وهى محدد أساسى لسلوك الانسان مستمرة معه منذ كان يعيش فى الغابة (١٠) . تساعد الايديولوجيا على أن يشعر الفرد بأنه جزء من كيان أكبر من وجوده الخاص ، والثوريون الايديولوجيون لا يحتاجون الى تنوير العقل ، ولكنهم بالحري فى حاجة الى المعجزة ، والسلطة « الكاريزماتية » ، والغيبيات . والجماهير وحش بلا رأس ، ولا يمكن توحيدها وقيادتها الا عن طريق عواطفها ، ومن يظن أن الجماهير يمكن أن تتوحد وتتقاد بطريقة أخرى غير العواطف ، ليس أكثر عقلانية من رجل يضع الماء بدل الوقود ليسير قاطرة . ان الايديولوجيات تتغير وتختلف ، لكن يبقى دائما أنها تخاطب الغرائز ، ويتسلق العقل ليبرر اللاعقل .

الايديولوجية تختار الايديولوجى :

يظن من يعتنق الايديولوجيا أنه يختار اختيارا حرا واعيا نظريته الى العالم ، بينما الذى يحدث هو أن الايديولوجية تختار من يعتنقها . هى جاهزة على اختلافها لفئات معينة من الناس ، كان ينضوى تحت ايديولوجية حسب احباطاته ، ومشاعر المرارة التى أصيب بها ، والكبت الذى لم يجد له متنفسا ثم الاحلام التى ينبغى أن يحققها . يريد الايديولوجى الثورى تغيير العالم لأنه لم يستطع تغيير حياته هو ، وشعوره بالعجز - الذى يعنى افتقاد القدرة على السيطرة على الأحداث - يدفعه الى مزيد من محاولة السيطرة على مقدراته ، بالالتجاء الى المثاليات والتخلى الظاهرى عن رغباته ، ربما الى حين . أو بمحاولة تدمير طبقة لم ينجح فى الصعود اليها ، أو تعويض حرماناته العاطفية بالتطهر وتكريس النفس لاهداف مجاوزة للواقع . وفى عالم اللايقين الذى يتغير فيه كل شئ ، يلجأ الانسان الى كهف المطلقات ، فتصير فكرة التقدم حتمية تاريخية ، أو تصوير الشيوعية ثورة عالمية لابد من وقوعها بحكم القوانين التاريخية ، أو يصبح العبث أساسا للوجود . وتقابل الفكرة المتعصبة فكرة متعصبة مضادة ، وفى حمى الدفاع عن الفكرة تزداد التحصينات الفكرية التبيرية . وفى الايديولوجية يأخذ المثقف المنظر مكانة القس ويعلم الناس اللغة المشتركة التى يتفاهمون بها ، ويستحثهم على أن يتصرفوا بالطريقة التى يريدها . ومن يتبعه ويقع لأرائه ، فانما يفعل ذلك لأن الايديولوجية تساعده على أن يرى فى عالمه ما يعتقد ، لا أن يعتقد ما يراه وأن يؤكد عقائده فى مسار الحياة ، أكثر من أن يزداد معرفة بالخبرة التى

يحياها (١١) . ان الاخلاص الذى يعتنق به الناس الرؤى المختلفة للمسائل الاجتماعية والسياسية ، جزء من كل (جشالت) تشترك فيه بعمق بناهم الشخصية على نحو أو آخر . فالطفل أب الرجل ، وتاريخ حياة الفرد يقدم تفسيراً لبنيته الشخصية الحالية ، وللأساليب التى حولت بها الصراعات والاحباطات الانفعالية . ولا يمكن أن يعتنق أى فرد ايديولوجيا مثل النازية الا ان كانت لديه أعراض سادية ورجسية وتمركز حول الذات واكتئاب وقلق ، نتيجة لسيطرة الأبوية فى الطفولة ، وعقدة أوديب والتناقض الوجدانى نحو الأب (*) . هاهنا تختاره النازية لأنه ملائم لها ، كما تختار كل أيديولوجية معتنقيها لأنهم بخصائصهم النفسية مؤهلين لها .

ان الايديولوجية بمثابة قناة تنسال من خلالها العواطف وتستنزف عن طريقها طاقات الانفعال لتنتشت فى عالم السياسة برموزه المختلفة ، من الزعيم الى الدولة القومية ، الى الجماعة المهاجرة التى تكفر المجتمع ، الى الفن الجماهيرى ، الى العلم الموجه بالديالكتيك (*) . وعلى هذا النحو غدت الايديولوجيا دينا « علمانيا » . هى ليست مجرد مجموعة من الأفكار يقتنع بها شخص ما يمكن أن يتنازل عنها كلها أو بعضها عن طريق الاقناع فى حوار مع رأى آخر ، أو موقف سياسى يمكن أن يتخلى عنه ان استبانته له جوانب كان يجهلها ، وانما الايديولوجية أفكار تقوم أساسا على معتقدات وعواطف غائرة فى نفس الانسان . ومع الانهيار الدينى الذى حدث فى الغرب ، فتح المجال واسعا أمام الايديولوجيا . كان الخوف من الموت سببا فى زيادة تيار اللاعقلانية والتعصب والعنف والقسوة . ولم تعد عواطف الناس تجد متنفسا لها فى الرموز والطقوس الدينية ، مع اعتقادهم بأن لا حياة لديهم الا هذه الحياة . لهذا نشأ البحث عن البديل من خلال تأكيد الذات ، أو السيطرة على الآخرين ، أو الشعور بالتفرد . كان على الفرد أن يتحدى الموت بالتمسك بقوة قهارة أكبر من وجوده الشخصى ، مثل الانتصار الحتمى للشيوعية ، أو سيادة العنصر الجرماني ، وكان عليه أن يحسن حياته التى لا يملك غيرها بعد . أن فقد الأمل فى اخراه ، فنشأت عشرات الايديولوجيات الكبرى منها والصغرى (١٢) .

تلك هى النظرة المعادية للايديولوجيا . وهى ان اصابته فى بعض تفصيلاتها الا أنها ليست صائبة فى كليتها . والسبب بسيط ، وهو أن الهجوم

على الفكر الايديولوجى لن يكون الا من موقف ايديولوجى يحاول أن ينزع سلاح الفكر حتى لا يتحول الى سياسة ، وتتحول تصورات الانسان الجديدة الى واقع جديد . وقد نشأ الهجوم على الايديولوجية كرد فعل لرواجها فى الخمسينات والستينات فى العالم الغربى احتجاجا من بعض أبنائه على اتجاهات الغرب الاستعمارية ، وعلى اوضاعه الداخلية الفاسدة .

كانت الايديولوجية خطرا فى تلك الفترة لأنها تنذر بالتغيير لغير مصالح القوى المسيطرة ، وكانت خطرا أيضا لأنها من الناحية المقابلة يمكن أن تخلق الفوضى الاجتماعية ، وتقسم المجتمع الى مئات الجماعات التى تفرقها ايديولوجيات متناقضة ، بما يهدد التجانس الثقافى ، ويؤدى الى التناحر بين أبناء المجتمع الواحد على قضايا متباينة ، الكثير منها فردى ضيق . الهجوم على الايديولوجية اذا قد يمثل ايديولوجية محافظة ، ايديولوجية الأمر الواقع ، و « الهندسة الاجتماعية » التى تعالج الأدواء وتقوم بالاصلاح على أسس موضوعية : اذا ثار العمال بتدخل التخطيط « العلمى » لاصلاح أحوالهم كعمال ، واذا سخط المثقفون حولت طاقات سخطهم الى ما يفيد فى معالجة المشكلات الداخلية ، أو يعزلون عن طريق التصويت على آرائهم المتطرفة ، واذا قلق الشباب يتم البحث عن أسباب قلقهم من المدخل النفسى الفردى ، ويتم اختوائهم باشباع حاجاتهم ، ولا ضرورة لتصورات أو أحلام جديدة لمجتمعات انسانية غير تلك القائمة بالفعل (*) .

وأكثر ما يعنيننا فى هذا الهجوم أنه يفصل ما بين العلم والايديولوجية ، كأن الايديولوجية مجرد تشويه للعلم . ومن ثم فان على من يبحث فى العلم أن ينصرف الى المعرفة النزيهة المجردة عن الانحياز الاجتماعى . لكن الصحيح أن الايديولوجية ضرورة لحياة الانسان الاجتماعية وللعلم معا ، لنحاول توضيح تلك الضرورة ، بالاقتراب منها بروح غير معادية .

الايديولوجية : اعادة نظر

الايديولوجية تعبير عن الخيال الاجتماعى

تقدم الايديولوجيا وعيا بالعالم . لا تقدمه لمن يعتنقها ، من يقرؤها أو

من يتلقونها ، لكنه وعى يشارك صاحبه بالضرورة فى صنعه ، والا كان وعيا زائفا ، أو مجرد « دوجما » . ليس الوعى اسما (استاتيكا) للمعرفة ، وليس صفة يتحلى بها المتعلمون دون الآخرين ، لكنه فى المقام الاول ، فعل قائم على نسق متكامل من المعرفة ، ربما كان الكيف فيه أكثر أهمية من الكم . حقيقة أن المعرفة أول درجات الوعى ، لكن ليست كل معرفة وعيا ، بدأ من ادراكى أن ما أمامى « منضدة » ، الى معرفتى لكل المدارس الفلسفية ، وكل تاريخ الفلسفة . لأنه يمكن أن تتكون لدى القدرة على تصنيف المدارس الفلسفية فى كل مباحث الفلسفة ، دون أن يتعدى هذا شيئا أكثر من معرفتى بنظام من نظم المعرفة . لا تتحول تلك المعرفة الى وعى الا أن تكاملت فى نسق مع معارف أخرى ، ليكون هذا النسق اطارا أنظر من خلاله الى العالم ، واحد موقفا مع ، وضد . مع فكر ضد فكر ، ومع قوى اجتماعية ضد قوى أخرى ، ومع تصور للمستقبل مخالف لغيره من التصورات .

ويتحدد صدق الوعى بمدى قدرته على ملء الفجوة ما بين التاريخ الخاص للفرد والتاريخ العام للمجتمع ، والبشرية كلها . ان الناس عادة لا يحاولون أن يدركوا أسباب متاعبهم أو يفسروا أسباب متعهم فى ضوء التغيرات التاريخية والتناقضات المؤسسية فى مجتمعاتهم ، لأنهم لا يدركون الترابط والتفاعل بين أنماط حياتهم الخاصة ومسار تاريخ العالم . لا يدرك تلك العلاقات الا من يطلق العنان « للخيال الاجتماعى » (١٣) . ويربط الخيال الاجتماعى ما بين حقائق الحقبة التى يعيشها الفرد وبين ما سبقها من تاريخ ، وبين حياته الخاصة . انه حين يتعرض مجتمع لتحولات فى مؤسساته ، كأن يدخل مرحلة التصنيع مثلا ، يصير الفلاح عاملا ، ويصفى الاقطاعى أو يصير رجل أعمال ، وترتفع طبقات وتسقط أخرى ، ويجد البعض فرصا للعمل المربح ، ويفلس آخرون أو يعانون البطالة . وفى ضوء تلك التحولات فقط يمكن دراسة نفسيات الأفراد فى احباطاتهم وتطلعاتهم ، وانسجامهم ومبادراتهم . ليس الفرد هنا ظاهرة مفردة ، لكنه جزء من ظواهر عامة . وحين يحاول المحيط أن يفسر احباطه تفسيرا فرديا صرفا ، فإنه يقع فى الوعى الزائف . وحين يفسره فى ضوء فترته التاريخية فهو يسير نحو وعى صحيح ، لأنه يحاول أن يقف عند نقطة ارتكاز فى اتخاذ القرار . ان يصوغ قلقه الخاص فى عبارات كلية تشتمل حقائق أكبر من وجوده الفردى . وتقدم الايديولوجية تلك العبارات لتعطيها اجابات عن أسئلة : أين يقف ، وماذا يستطيع أن يفعل فى الحاضر وفى التاريخ

ويتحمل المستقبل كمسئولية . لكن اجابات تلك الاسئلة لا يمكن الوصول اليها مرة واحدة والى الأبد ، لأن كل حقبة تقدم اجاباتها الخاصة ، وكل معتنق للايديولوجية عليه أن يجد اجاباته هو ، لا أن يكتفى بترديد اجابات الآخرين . ولهذا فان الوعي معاناة وليس مجرد معرفة تحصيلية . لأنه عملية ربط بين عناصر كثيرة : بين الخبرة الشخصية والتاريخ ، والهموم الخاصة والمتاعب العامة ، والسياسة وعلم النفس ، والمؤسسات العسكرية والشعور بالوحدة .
فى قصيدة شعر حديث (١٤) ٠٠

من هنا كانت الايديولوجية دعوة الى المشاركة فى صنع التاريخ ، أيا كان قدر الدور المتاح للفرد فى صنعه .

الايديولوجية وعى صحيح ووعى زائف :

فى محاولة ملء الفجوة بين الحياة الخاصة والتاريخ قد يتكون الوعي الزائف ، لأن الوعي لا يتكون من فراغ ، وانما يتأسس على ما تتبحه الحقبة من معرفة ، ينتقى من بينها محتواه . وقد تتصيد بعض الايديولوجيات معتنقيها لتجنده كمخلب قط فى يد « التاريخ » ، على أساس أن هناك قوانين تسييره مجاوزة لقدرات الانسان ، أو يقع « للتوبيا » (*) السائدة فى مجتمع ، أو لايديولوجية جماعة من جماعات الاقلية ، ليقاوم حكم الفرد المستبد بحكم أكثر استبدادا بالانسان وحريته ، أو يستبدل قيم مجتمع اقطاعى يقيم اقطاعية أشد غلواً . وبهذا تمثل الايديولوجية وعيا زائفاً ، أو « دوجما » متحجرة . فكيف نحكم على وعى بانه وعى زائف ، بينما نحكم على وعى آخر بأنه صادق ؟ ليس صحيحا أننا فى هذه الحالة نقع فى شرك نسبية الوعي ، أى أن كل وعى يحكم على الآخر بأنه وعى زائف من منظوره هو . لأن الوعي اذا كان يتأسس على المعرفة ، فان للمعرفة طرقا فى اختيار صدقها . هنا نستطيع أن نحكم جزئيا على الايديولوجية من خلال حكمنا على تكوينها المعرفى ، الى أى حد يرتبط كل منهما بالآخر ؟ كيف استطاعت الايديولوجية أن تفيد من معارف الانسان وتضيف اليها الخيال الاجتماعى لتخرجها فى نسق متكامل ؟ نحن لا نستطيع أن نصل الى حكم فى هذا الخصوص بوضعنا كل الايديولوجيات فى سلة واحدة لنقوم بعملية اختزال وتجريد لها ، لكى نستخلص سمات الفكر الأيديولوجى ، وخصائص من يعتنق الايديولوجيا . ذلك تبسيط شديد يحاول

أن يؤثر بطريقة بلاغية فى المتلقى متغافلا عن مئات التفصيلات . فليس فى وسعنا أن نسوى بين الصهيونية والليبرالية ، والنازية والاشتراكية ، وبين ايدىولوجيا جماعة (الحشاشين) وايدىولوجيا (العلم والتكنولوجيا) . والفرق كامن فى البنية الداخلية لكل ايدىولوجيا ، منها ما هو هش قائم فعلا على الخرافة ، ومنها ما هو متماسك قائم على المعرفة العقلانية . والنموذج للايدىولوجيات القائمة على الخرافة هو الصهيونية . فهى رغم ارتباطها بتيارات التحديث وحركة التنوير والليبرالية والماركسية وشتى التيارات الحديثة ، الا أنها تعتمد فى صلبها على مجموعة من الأساطير ، وهم شعب الله المختار . وهى تتسع لتجمع بين الفقراء والأغنياء ، والمتحضرين والمتخلفين وتستخدم كل العقائد المتناقضة حتى تجد قبولا لدى كل أنواع اليهود ، ولتتواءم مع كل الأوضاع السياسية والفكرية والنفسية . كل الأفكار لديها صحيحة من الليبرالية والاشتراكية والفاشية ، والتزمت الدينى والالحاد ، ما دامت مؤيدة للمهدف الثابت وهو أسطورة من النيل الى الفرات التى تحاول تجسيدها كحقيقة . فبينما تزعم الصهيونية أنها ايدىولوجية عالمية انسانية « ستحب أنت الغريب » ، الا أنها عنصرية متعصبة « ستقتل أحسن الاغيار » ، وليختر كل ما يشاء . وجدت الصهيونية أن الخلاص لن يتحقق لليهود بانتظار المسيح ، وانما بالاشتراك فى دين العمل ، وفى استغلال كل ما يمكن استغلاله (١٥) ، فهى ايدىولوجية نفعية الى أقصى حد . صحيح أن الصهيونية ناجحة حتى الآن رغم انطباق كل مساوئ الفكر الايدىولوجى عليها . لكن النجاح العملى وحده ليس معيارا ، لأن هناك ظروفا كثيرة فى نشأة اسرائيل وبقائها كما هو معلوم .

ولا نستطيع أن نوجه نفس التهم الى الليبرالية مثلا كما هو الحال فى الصهيونية . فالليبرالية نسق مترابط من الأفكار اعتمد فى بنيته على أحدث النظريات العلمية المتاحة . ولا يعيبها أن فكرتها الرئيسية تقوم على اعتبار المجتمع جزءا من النظام الكونى ، وإن تعتمد فى نشأتها على تصور نيوتن للكون أى غير ذلك من تصورات علمية ، بل تلك ميزة الايدىولوجية والا ما كانت فكرا متكاملا . وفكرة اعتبار المجتمع جزءا من النظام الكونى تولد عنها تنظيم المجتمع على نحو أفضل اذ اعتبر القانون فى المجتمع جزءا من الناموس الكونى كله ، اذا اختفى اختفت الحرية وانقلب المجتمع الى فوضى لا يأمن فيها الفرد العنف والضغط من جانب الآخرين . (١٦) . وليست تلك الفكرة اسقاطا

عنصريا على الكون والمجتمع ، وليست كلمات حماسية مؤثرة كما تهتم
الايديولوجية . صحيح أنه يمكن أن نهجم الليبرالية من منظور اشتراكي مثلا،
لكن لا يمكن أن نهجمها من حيث كونها أسطورة . فهي أيديولوجية شارك في
صياغتها كثير من كبار المفكرين الغربيين من أمثال جون لوك ومونتسكييه
وفولتير وأدم سميث وستيوارت مل (١٧) . وتلك الجهود لا يمكن أن تختزل
فى بساطة الى تفسير نفسى ، وهو لعبة الأحزاب التى يحاول كل منها أن يكون
سندريلا « السياسة » . ولأن الليبرالية تقوم على العلم ، فهي قادرة على أن
تتطور مع تطور العلم، على عكس الصهيونية التى لا تستطيع الا أن تلتقى وتبرر
وتجمع بين الأضداد . لأن شعب الله المختار يجب أن يظل شعب الله المختار .
والنصوص الرئيسية جاهزة وموجودة مقدما ، لا يمكن أن تستبدل بنصوص
أخرى . قد تصلح الليبرالية لأن تكون وعيا لكثير من شعوب الأرض التى تعاني
استبداد السلطة وطغيان الفرد والرأى الواحد . لكن الصهيونية لا تصلح الا
للهيمنة وحدهم .

الايديولوجية تحديد موقف من العالم :

لا تتبادل الايديولوجيات الفكر لكى تجد ارضا مشتركة، وتساعد الواحدة
الأخرى من أجل الوصول الى الحقيقة المطلقة . ولكن الايديولوجيا تحديد
موقف ، وتحديد خصم ، وتحديد صديق . فالصراع الاجتماعى والانسانى
عامة يلعب دوره فى نشأة الايديولوجيات وفى رواجها . ان الناس لم يجتمعوا
معا لأنهم يحبون بعضهم البعض حبا غريزيا وحسب ، بل لأن بينهم صراعا
أيضا . « الآخر » بالنسبة للفرد ضرورة حياة ، بالاتصال والانفصال ،
وبالسيطرة وبالخضوع ، وبالسادية والمساوكة . وبالمثل ، لا يمكن استبعاد
الصراع من الحياة الاجتماعية وانما يمكن فقط كبته أو تحويل اشكاله . وحالة
السلام ما هى الا تغير فى صيغة الصراع ، أو فى موضوعاته ، أو فى أسلوب
المتصارعين (١٨) لهذا تتكون المجتمعات بالصراع ، لا لأن المجتمع جزء من
الطبيعة التى يحكمها قانون الناب والمخلب والبقاء للأصلح ، ولكن لأن الصراع
جزء لا يتجزأ من عملية التطبيع الاجتماعى ذاتها . والدليل ، أنه لا توجد
جماعة منسجمة تمام الانسجام ، لأن الانسجام التام فى الجماعة يعنى خلوها
من العمليات والبنى الاجتماعية اللازمة لتكونها واستمرارها . ليس الصراع
اذا عاملا اجتماعيا معوقا الا ان زاد عن حدة زيادة مفردة . والاعتقاد

بأن الصراع يهدم ، بينما التعاون يبني المجتمعات أعتقاد خاطيء ، لأن المجتمعات ليست محصلة لعملية جمع وطرح ، ولكنها تبني بالنسب والايجاب ، وبالحذف والاضافة (١٩) .

وتتدخل الايديولوجية تدخلا حاسما فى عملية الصراع . لأنه ما دام فى المجتمع صراع ناجم عن مصالح مادية ، فلا بد أن توجد دفاعات فكرية متضاربة . وتعمل الايديولوجية على حفظ هوية وحدود المجتمعات والجماعات ، لأنه كما يحدث للفرد حيث لا تتكون هويته الا من خلال تفاعله مع الآخرين بالقبول والرفض ، تميز الايديولوجيات الجماعات المتصارعة وتعطيها اطارها فى مقابل العالم الاجتماعى المحيط بها . وتعمل العداوات والخصومات المتبادلة على حفظ النظم الاجتماعية فى عملية الحراك ، لأنها تحفظ الحدود بين الجماعات الفرعية فى النظام الاجتماعى الكلى وتمنع اختفائها . والايديولوجية تعنى فى حالة تبلورها الانتقال من حالة الانفعال الى الفعل ، ومن الكراهية المعممة غير المتعينة ، الى أهداف محددة للعمل والتغيير (٢٠) . والانسان لا يتحرك أو يفعل لمجرد أنه يعرف ، ولكن من الضرورى لكى يفعل أن « يعتقد » .

تطالب الايديولوجيا معتنقيها بحالة من الالتزام ، لأن اعتناق الايديولوجيا اختيار درامى . هو ليس اختيارا بين صنف من الطعام وصنف آخر ، لكنه اختيار بين وجود ووجود ، له تبعاته فى المسئولية والتضحية ، والكسب والخسارة . ليست الايديولوجيا استمتعا بالأفكار ، لكنها تحمل لمعانة الوعى بدور الانسان فى اللحظة التاريخية التى يعيشها . والقول بأن تلك لغة فخمة يتبناها الفكر الايديولوجى ما هو الا محاولة للتقليل من شأن الانسان وشل قدرته على التغيير وربطه الى واقع جاهز الصنع على أنه الواقع الوحيد الممكن ولا فرار منه . انها دعوة الى التفكير بما يسمى « المصطلحات الاجرائية » فى سياق لا تصلح فيه تلك المصطلحات . وقتل لمفاهيم حضارية قادرة على أن تكون عالما انسانيا رحبا يدفع الانسان الى الفعل . عالم يتكون من كلمات مثل الجهاد ، والشرف ، والكرامة ، والحرية ، وتغيير العالم ، والمجد واذا انزاحت تلك الكلمات من عالم الانسان لتحل محلها الأرقام ، أى كلما أصبح الانسان أكثر « عملية » وأكثر « آلية » ، وكلما كان أكثر أنانية ونفعية يدور فى فلك مصلحته الخاصة دون شعور بالمسئولية عن الآخرين . ولا اغتراب أشد حدة من أن يكون الآخرون مجرد أدوات ووسائل نافعة للمصلحة

الخاصة . لا يصلح المفهوم الاجرائي حين نفكر فى الواقع الانسانى الشامل ، ولا يجوز التفكير بالكم حين يجب التفكير بالكيف ، والا فقد الانسان قدرته على مجاوزة الواقع ، ومن ثم القدرة على تغييره . ولا يحدد الانسان موقفه من الحياة الا اذا وعى نوع العالم الذى ينحاز اليه . ليست القضية اذا أن يختار الانسان ايدىولوجيته ، أو أن ايدىولوجيته تختاره . لكن القضية هى أن هناك ايدىولوجيين كبار ، وايدىولوجيين صغار . الايدىولوجى الكبير مفكر كبير بالضرورة ، يحاول اعادة تنظيم العالم وربط عناصره بتوسيع معرفته عنه . والايدىولوجى الصغير قد يكون مسلوب الوعى يردد ما يقوله الكبير ، حيث يجد فى الايدىولوجية عزاء عن حرماناته ، ومتنفسا لانفعالاته وتعصباته اللاعقلانية .

الايدىولوجية تحديد موقف من العلم :

كما تلبس الأيدىولوجية رداء العلم ، يلبس العلم رداء الايدىولوجية . وكما نستطيع أن نقوم الايدىولوجية من جانبها العلمى نستطيع أن نقوم العلم من جانبها الايدىولوجى ، وهذا أمر واضح تماما فى العلوم الاجتماعية ، لأن كل عالم أو باحث يقيم نظرياته وأفكاره على بنى تحتية ايدىولوجية . ونختار للتوضيح بعض أمثلة من علم النفس ، أكثر العلوم الاجتماعية تشبيها بالعلوم الطبيعية ، لنتبين ارتباط نظرياته بأيدىولوجية معينة .

كان ستانلى هول يحاول أن يجيب عن الأسئلة الفلسفية المتعلقة بطبيعة الانسان عن طريق علم النفس . فنادى بثقافة الجسد ، لأن الجسد القوى أكثر الأشياء أهمية فى كل مرحلة من مراحل نمو الانسان ، ولأن الأطفال والرجال يفكرون بارادتهم وعواطفهم أجسادهم أكثر مما يفكرون بعقولهم . ومن ثم ، فإن الطفل الذى يفتقد الحيوية لا يستحق أن يلتحق بالتعليم . لأن التعليم لايفعل شيئا فى بعض الأحيان أكثر من مداراة الحقيقة الطبيعية لبعض الناس . والذين يقعون فى أسفل سلم التطور لن يفيدهم التعليم شيئا ، والأفضل للطفل الذى لا يملك الحيوية للعب المتواصل الا يذهب الى المدرسة ، لأن أكثر ما يحتاجه التلميذ هو مقررات فى « البطولة » ليتوحد مع الأبطال ، لا البحث العقلى . وأحسن أنواع التربية هو ما يجعلنا خادمين طائعين ، لأن هذا هو طريق السلام وسنة الطبيعة ، لأننا لو حاولنا جادين المحافظة على ضمير

خاص دون سلطة خارجية ، فاننا سنواجه بصعوبات تصل من الضخامة حدا يجعل غالبيتنا تسارع بوعى وارادة - على نحو أو آخر - لتضع نفسها تحت سيطرة السلطة الخارجية مرة ثانية . حقنا فى الحرية هو حق اختيار السيد . وعن طريق التربية ، وعلم نفس « الجينات » والنظام التربوى الجيد ، والتخطيط المتوافق مع الطبيعة الانسانية ، لا مع مطالب أو مصالح المجتمع ، يمكن أن توجد مملكة « السوبرمان » (٢١) .

واعترف فرويد نظرة التطور ليطبقها على الانسان ، وهى تتضمن اعادة الماضى الغريزى للانسان من خلال اللاشعور . ورأى الطبيعة الانسانية تتكون من كائن بدائى ، يتطور من حيوان الى انسان بشكل مختزل فى حياة كل طفل . ليس الماضى ماضى المريض النفسى وحده ، لكنه ماضى الجنس البشرى كله ، بدأ من حيوان يسلك سلوكا فسيولوجيا بدائيا ، الى كائن مفكر يستعمل الرموز . ومن ثم فان الناس ليست مخلوقات طيبة لطيفة تسعى الى أن تكون محبوبة ، وتدافع عن نفسها فى حالة الهجوم عليها فقط ، بل هم عدوانيون بالغريزة وعدوانيتهم تحتاج الى تبريرات ، وتضع نفسها فى خدمة أغراض يمكن أن تصل اليها بطريقة أكثر لطفا . وحين تسترخى قوى القمع تعبر العدوانية عن نفسها تلقائيا وتكشف عن الوحش القاسى ، وتغزو الانسانية مغتربة عنه . ولا أمل للانسان ، والسعادة الطوباوية لا يمكن تحقيقها ، لأن الخطأ فى النهاية ليس خطأ فى المجتمع ولا فى الفرد ، ولكنه خطأ متضمن فى الطبيعة الانسانية ذاتها ، وهى ثابتة . كل ما يستطيع المرء أن يفعل والحالة هذه ، هو أن يحول تعاسته الهيسيرية الى شعور يومى بعدم السعادة ، وهذا مكسب كبير ، وعيب يجب أن يعتاده كل البشر . والثورات أعمال بلا جدوى ، كل ثورة تبدأ باسم الحرية ، وتنتهى بالضرورة بالضبط والقمع ، لأن تحرير مبدأ اللذة على حساب مبدأ الواقع يؤدى الى حالة « اللاتقافية » . لا سعادة ، حتى بمحاولات الثورة ، لأن الحضارة تتبع قوانين الضرورة الاقتصادية ، فتسحب قدرا كبيرا من الطاقة الجنسية لتستعملها فى أغراضها الخاصة ، وهذه الطاقة تسحب من الجنس على حساب الاستمتاع ، لأن الانسان المتحضر يقاىض المجتمع بجزء من فرصته فى السعادة ، فى مقابل الشعور بالأمن (٢٢) .

وكان ثورنديك يرجع الفروق الفردية الى الوراثة ، لا الى البيئة . والتعليم عنده يجب ألا يقدم للجماهير ولكن للصفوة الموهوبة فقط ، ومن ثم فان

تقديم التعليم الالزامى لغير القادرين محاولة مقدر لها الفشل . والأذكىاء أحسن شخصية وأكثر اكتمالا من الناحية الخلقية وأقوى إرادة من الأغنياء . ومن لهم مستقبل أحسن فى هذا العالم ، هم النظيفون الطيبون من الناس ، لا الدهماء . هكذا تشير معاملات الارتباط عنده ، حيث توجد علاقة ايجابية بين الكسب المادى والذكاء والأخلاق الفاضلة . وبهذا تتساوى الفضيلة مع الثروة ، حيث الوراثة فى الأخلاق والذكاء عن الأجداد القريبين حقيقة ، والاختلافات العنصرية أيضا حقيقة وليست وهما . فالتلاميذ البيض ، أكثر امتيازاً فى الدراسة لأنهم متميزون فى طبيعتهم الأصلية ، بالإضافة الى البيئة المواتية التى توجد بها تلك الطبيعة الأصلية . وعلينا أن نخدم أبناء القادرين لم يصلوا الى القمة ، وأن نخدم أبناء غير القادرين الأشرار بحرمان « جيناتهم » من البقاء والاستمرار . لا مساواة ، لأن الارتقاء البيولوجى جعل البعض على الذكاء ، والآخر قليل الذكاء فى مقياس « الجينات » . والفروق الاجتماعية والاقتصادية انما هى نتاج للفروق فى الذكاء الموروث (٢٣) .

ونقف عند سكنر وقفة أطول قليلا ، حيث سيطرت سلوكيته على علم النفس التربوى عامة ، بل على معظم البحوث الاجتماعية بحكم الثقل الاقتصادى والثقافى لأمريكا . يرى سكنر الانسان « ماكينة » ويدرسه على هذا الأساس . ولا يدفع عن نفسه تهمة النظر الى الانسان هذه لأنه يرى الانسان مجموعة أفعال منتظمة كما هو الحال فى الماكينة . ويعلن أنه لا يبحث « الطبيعة الانسانية » ككل ، لكنه موجه فى بحثه بأسئلة معينة ، ذات أهداف محددة مؤداها : كيف يمكن أن ينتج الانسان أكبر انتاج ممكن ، فى أقل وقت ممكن ؟ ثم ، كيف يمكن التحكم فى سلوك الانسان ؟ والاجابة هى نظام التعزيز ، والتشريط الاجرائى . لقد ادى نظام التعزيز الى أن تقوم الجماعة بأعمال لا يقوم بها الحمام عادة ، وكما يمكن التحكم فى الحمام والحيوان عامة يمكن أن نتحكم فى الانسان بحيث يقوم بما نطلب منه . فى المصنع مثلا يمكن نضع جدولا للعامل حتى ينتج بصورة أكبر من طريق التعزيز ، لكن بصورة لا يكون فيها هلاكه تحت تأثير التعزيز . ومثلما هو الحال فى المجتمع الأمريكى يقترح سكنر ان ينقل نظام « اليانصيب » فى المصنع ويكون السحب على الانتاج ، استغلالا لنفسية العامل التى كونتها الثقافة الأمريكية ، والتى تشتهى الثراء السريع بالمغامرة أو المصادفة . وعلى نحو ما يكون فى المصنع تكون المعادلة فى التعليم : ما أحسن انتاج تعليمى ممكن ، فى أقل وقت ممكن ،

(دراسات تربوية)

وبأقل تكلفة ؟ والجواب : التعليم المبرمج . والتعليم المبرمج يقوم على التعزيز ، لا العقاب . ان العقاب فى رأيه لا يؤدى الى التعلم ، لكنه يؤدى فقط الى محاولة الهروب من الموقف العقابى باستجابات جديدة ، وتلك الاستجابات يمكن أن تختفى عند اختفاء الموقف العقابى ، لتعود الى الظهور استجابات أسوأ من الاستجابات الأولى . نحن نعيش فى مجتمعات تقوم على القهر ، ويجب أن تخلو المجتمعات من الاكراه ويوجد فيها التعزيز فقط لتنشأ الاستجابات السليمة . حتى بالنسبة للدين يجب أن يخلو من الاكراه أو التهديد بالعقاب ليحل محله حب الله أو حب الانسانية : وبهذا يكون التعليم متسقاً مع الانتاج الصناعى ، وكلاهما يتسق مع المجتمع ككل . وفى روايته الشهيرة «والدن ٢» يتصور مجتمعاً خالياً من العقاب ، هو يوتوبيا يضحى فيها الانسان بفكرة الكرامة والحرية من أجل السعادة .

وأفاد سكرن بعلمه الصناعة الأمريكية أكثر مما أفاد التعليم . لأن الصناعة فى رأيه يقوم عليها مسئولون يهتمون أن يزيد الانتاج ويحسن . بينما لا يوجد مسئولون فى التعليم يهتمون على وجه التحديد بزيادة الانتاج التعليمى وتحسنة . وهو يرى أنه قادر على ابتكار ماكينات جديدة للقمار تستنزف كل ما فى جيوب المقامرين من أموال ، لكن لا يمكن استخدام التعزيز بالامكانيات نفسها فى التعليم لأن التعزيز فيه قليل بطبيعته . ولو كان أكبر مما هو عليه لأمكن اللعب بخيوط الدمية البشرية كما نشاء (٢٤) .

أين العلم فى الأمثلة السابقة وأين الايديولوجية ؟ ان الايديولوجية هى القالب الذى يصب فيه العلم ، لأن صانع العلم والايديولوجيا واحد ، وهو الانسان بعقلانيته ولا عقلانيته ، ونزاهته وتحيزه ، وتفكيره المنطقى ومغالطاته المنطقية وانتماءاته وعداءاته الاجتماعية والسياسية . يصعب أن نقول ان مفهوم « الليبيدو » عند فرويد مفهوم محافظ ، أو أن « قانون الأثر » عند ثورنديك قانون رجعى ، أو أن « التعزيز » عند سكرن مفهوم رأسمالى ، تلك تفصيلات معرفية ، لكن حين تتضافر التفصيلات المعرفية فى نسق نستطيع أن نحكم مع وضد من يقف هذا النسق أو ذاك . وقبلنا ورفضنا بدورهما لا يقومان على أسباب علمية صرفة ، وانما على أسباب ايديولوجية أيضاً . بعبارة أوضح ، يرتبط العلم الاجتماعى ارتباطاً شديداً بالسياسة وما يرتبط بها من أوضاع اقتصادية واجتماعية ، حتى لو بدا بعيداً عن ذلك تماماً .

ولهذا قد نقبل أو نرفض فرويد أو سكندر أو غيره ، ليس لمجرد تفصيلات معرفية ، ولكن لأن لنا نظرية موافقة أو مختلفة مع ما تتضمنه تلك التفصيلات المعرفية عن الكون والانسان والمجتمع . أى النظرة الايديولوجية (*) .

نخلص من هذا الى أنه ما دام يوجد مجتمع أو حياة اجتماعية فسوف توجد الايديولوجيات وانه لا تختفى ايدىولوجية ما الا لتحل محلها ايدىولوجية جديدة . فحالة الفراغ الايدىولوجى لا وجود لها ، وانما لابد أن تتواجد حالة ملء ايدىولوجى ، حتى وان كان بالفكر المعادى للايدىولوجية . والاختلاف كله قائم فى نوعية الايديولوجيات الموجودة : من الايديولوجيات البدائية الى الايديولوجيات المعقدة المتطورة التى تتناسب وتعد وتطور المجتمعات . ومن ايدىولوجيات التبرير للاوضاع القائمة ، الى ايدىولوجيات التفسير والتغيير للاوضاع القائمة . ومن الايديولوجيات الضيقة التى تمجد عنصرا أو طائفة من الناس ، الى الايديولوجيات التى تخاطب الانسان بما هو انسان . ومن الايديولوجيات التى تعتمد على الأسطورة فى بنائها ، الى الايديولوجيات المجدولة مع العلم ونطلق عليها اسم « نظريات » . فاذا لم يكن ثمة مفر من الايديولوجية فى الحياة العامة أو فى العلم ، فخير لنا أن نختار ايدىولوجياتنا بدلا من أن نختارنا . وان نحدد موقفنا من عالمنا فى وعى ، بدلا من أن ننحرف أمام الأحداث . وليس الهروب من الايديولوجية هروبا من الدخول فى قالب ، ولكنه بالحرى هروب من مواجهة الذات ومن اعلان موقفنا الاجتماعى ، وتحديد أهدافنا العامة والخاصة ، واختيار وسائلنا لتحقيقها . والتحديد ليس تضيقا للفكر والحركة ، ولكنه خلق لامكانات الفكر والحركة بدلا عن التشتت فى كل اتجاه . وبهذه الفرضيات ننظر الى معرفتنا التربوية .

معرفتنا التربوية والايديولوجية

لنحاول أن ننظر الى المعرفة التربوية فى مصر من منظور ايدىولوجى ، هل نستطيع أن نتيبن نسقا معينا واضحا ، هل يسيطر اتجاه أو مجموعة اتجاهات معينة عليها ؟

نبدأ محاولة الاجابة بالتسليم بأن ثمة علاقة ارتباط وثيقة بين الايديولوجية العامة فى المجتمع ، وبين الايديولوجية الخاصة بالمعرفة .

الصورة العامة تغذى الصورة الخاصة • وتنعكس عليها ، لكن التعبير يختلف حسب مجال وبنية المعرفة • ومن ناحية الايديولوجية العامة نذكر أن دانيال بل (٢٥) يرى أن أيديولوجيات العالم الثالث على وجه العموم تتميز بمجموعة من الصفات من أهمها : أنها أيديولوجيات مسطحة ، تقتصر على الجانب السياسى ، ويضعها الحكام وهم عسكريون فى العادة ، وترتبط بأهداف نفعية عاجلة مثل : التصنيع أو القومية أو العرقية • ومن ثم تختلف أيديولوجيات العالم الثالث عن الايديولوجيات التى نمت فى الغرب ، من حيث أن أيديولوجيات الغرب نتاج لجهود كبار مفكره وعلمائه ، وبعضها يصلح لأن يكون ذا صفة عالمية • أما أيديولوجيات العالم الثالث فهى غارقة فى المحلية كنوع من الدفاع عن الذات ، أو متأثرة بأيديولوجيات الغرب لكن مع قدر من التشويه •

وعلى الرغم من أن دانيال بل واحد من أكبر المبشرين بانتهاء الفكر الايديولوجى ، الا أننا لا نرفض اتهاماته لايديولوجيات العالم الثالث على إطلاقها • فالعالم الثالث لم يدخل عصر الايديولوجيات الكبرى الذى كان ثمرة تطور العلم الطبيعى والفلسفة والفكر بوجه عام فى أوربا ، وكانت أيديولوجياته بمثابة مبارزات مسلحة بالمعرفة حول الواقع الاجتماعى والسياسى • وتلك الحقيقة سبب مباشر لضعف البنى المعرفية فى أيديولوجيات العالم الثالث ، وسبب لما يظهر من محاولات الدفاع والتبرير والتوفيق فى أيديولوجياته المحلية الخاصة (*) • وإذا انتقلنا من تلك الصورة العامة الى الصورة الخاصة فلن نجد هذا الحكم بعيدا عن الواقع • فربما لا ينكر أحد أننا نعيش فى تيه أيديولوجى عام ، يوجد شتات من أيديولوجيات الغرب ، وفى مقابلها دعوات رافضة من منطلقات متعددة • وتحديد العدو والصديق مسألة نسبية ووقتيّة متقبلة مع الأحداث • لا ثوابت ، وإنما متغيرات دائما • والحلم الاجتماعى العام الذى يتصور ماذا نريد أن نكون كمجتمع لا وجود له • والتيارات السياسية القائمة حاليا تتبلور فى أحزاب معارضة يوم بيوم ، بلا منظرين أو فلاسفة أو برامج متعمقة ، تضع الحكم الرسمى فى قائمة الخصوم دون نظرة شاملة متماسكة الاطراف لبدائل جديدة • والرجل العادى فى حالة تشتت يعجز عن الحكم القاطع بالصواب والخطأ ، ويعتق أيديولوجية « اللاموقف » فى يأس ولا مبالاة الا بأحلامه الخاصة ومصالحه المباشرة السريعة •

وربما لا نغالى إذا قلنا أن التيه الايديولوجى العام يشكل الى أكبر حد التيه الايديولوجى فى التربية ، الموقف نفسه يتكرر . ونعود الى الصورة العامة للتربية فى العالم الثالث ، فنذكر أن بعض المنظرين (٢٦) يرى أن الجهود البحثية فى التربية فى البلاد النامية تتصف بخمس خصائص : غلبة الطابع السياسى عليها ، وغياب التاريخ الاجتماعى والثقافى الخاص فى التنظير ، والمبالغة فى الاميريكية المجردة ، والسطحية فى اختيار الموضوعات ، واغفال للأسس الايديولوجية التى تقوم عليها النماذج ونظريات التى توجه البحث ومحاولات الاصلاح . وبالنظر الى مصر نذكر مرة ثانية أن تلك الخصائص ليست بعيدة عن المعرفة التربوية فيها ، فنحن اذا سألنا : ما الايديولوجية السائدة المميزة التى توجه انتقاءنا للمشكلات ، وتبيننا للنظريات العلمية ، واختيارنا لأساليب البحث المختلفة ، فلن نجد ايديولوجية ، أو مجموعة ايديولوجيات واضحة منذ دخول الفكر التربوى الغربى فى أوائل القرن العشرين . وانما الصفة الغالبة هى سيادة الموقف اللايديولوجى وأن غلبت حيناً بعض المدارس الغربية مثل البرجماتية والسلوكية . فى مصر كل النظريات والاتجاهات والمدارس ومناهج وأدوات البحث والتخصصات والمبتكرات والمستدحاث التربوية . وهى جميعاً فى حالة تعايش سلمى دون علاقات عداء الا فى حالات قليلة . وهذا الكم كله موجود ، لا بحكم الروح العلمية الليبرالية المتسامحة ، ولكن بحكم أننا نأخذ من الغرب الفكرة ونقيضها مجردة عن سياق الصراع الذى نشأ فيه كلاهما . فتعيش الافكار هنا منزوعة السلاح ، وتعامل على أنها أفكار علمية . ولهذا يسود مفهوم معين للبحث العلمى قوامه أفكار مثل الموضوعية ، والتجرد ، واللائحيان ، والبعد عن اصدار الاحكام ، والتحديد الاجرائى للمصطلحات ، ودراسة العلاقة بين متغيرين أحدهما مستقل والآخر تابع . وبهذا المفهوم تدرس موضوعات مثل : مشكلات اعارة المدرسين الى البلاد العربية ، والتخطيط التربوى عند أحد المفكرين فى التاريخ الاسلامى ، وتقويم برامج محو الأمية فى أحد المصانع ، وتقويم كتاب مدرسى ، والعلاقة بين التحصيل الدراسى والتغذية ، وتقويم الكفاءة فى احدى مدارس التعليم التجارى . بالاضافة الى دراسات الاستبيان التى يبدو بعضها وكأنه تحقيقات صحفية لأنها لا تقع تحت تخصص علمى مما تعتمد عليه التربية ، هى موضوعات فى التربية وحسب . ولا تتخلف البحوث عن الموضوعات السياسية ، هناك بحوث فى فترة الاشتراكية عن تنمية اتجاهات الادخار لدى الطلاب ، وتحليل اتجاهات القومية العربية فى المقررات ، وكيفية

تحويل الميثاق الى قيم عند التلاميذ . ثم بحوث فى الفترة التى تليها عن الدولة العصرية ، وعن ادخال المستحدثات فى التعليم ، وعن غرس القيم الديمقراطية فى التلاميذ .

وليس الغرض تقويم بحوث ودراسات التربية فى مصر واصدار حكم عام عليها بالسطحية ومجاعة النغمة السياسية التى تعزفها السلطة ، فهذا حكم جائر ، وانكار للجهود البحثية الممتازة . ولكن الغرض هو تقرير انه لم تخرج كثير من البحوث عن نظرية معرفية (ابستمولوجية) ، ولم ينتج عنها تبلور لنظرية معرفية على غرار ما نعرف من نظريات مثل « الاحياء الثقافى » ، أو « التطورية » أو « الوظيفية » أو « البنيوية » . لم تنقل النظريات متكاملة من الغرب ، وكل نظرية تتضمن مفاهيم أساسية عن الانسان والكون والمجتمع ومنهج البحث والجوانب التى تستحق أن تبحث . ولم تتبلور اتجاهات نظرية ذات طابع مصرى فى رؤية ودراسة الواقع المصرى . كان الاتجاه السائد - وربما مازال قائما - هو دراسة الواقع بطريقة مباشرة ، بحيث لا يكون للبحث قيمة الا اذا كان امبريقيا . ونشأت الاتجاهات المعادية للتنظير ودراسة الكتب ، لاختلاط معنى التنظير بالكلام الانشائى والعبارات الخطابية . وكان نتيجة ذلك كم من البحوث يتجه الى مشكلات الواقع بطريقة مباشرة لحصل مشكلاته ، مسايرة للاتجاه « العصرى » فى البحث ، وخلع عمامة التنظير . واعتبرت دراسة الماجستير والدكتوراه تدريبا على استخدام أدوات البحث ، كأن التنظير لا يحتاج الى تدريب . ولهذا اختلطت الامور ، واتجهت البحوث الى معالجة الاغراض على أنها الامراض ، واهتمت بالموضوعات المحددة الصغيرة لأنها أكثر مناسبة لاستخدام أدوات البحث . وبدلا من محاولة اتخاذ الواقع ميدانا للتنظير ، واستخدام التنظير لخدمة الواقع فى أبعاده المختلفة ، حدث التعامل مع الواقع المباشر فى صورته الساذجة .

وربما تأتى الفجوة الاساسية فى التنظير من غياب تاريخ التربية ، وفلسفة التربية فى مصر ، لا كمادة دراسية ، وانما كدراسات توجه أنظارنا لرؤية الواقع .

فواقعنا الحالى جزء من تاريخنا ، وتاريخنا لحظة جديدة فى واقعنا . ولا يكفى لتفسير واقعنا الحالى أن نلجأ الى مقولات عامة مثل مقولة

المجتمعات النهرية « أو « نمط الانتاج الاسيوى » أو أن نفسر ازماتنا بانهيـار الاخلاق ، أو بعلاقة التبعية . وانما نحن فى حاجة الى فهم خصوصية هذا الواقع من خلال التاريخ ، ومن خلال نقد خصوصيتنا التاريخية ، مستبـعدين ممالة الذات بتمجيد كل أيامنا وفعالنا من ناحية ، ومستبـعدين الشعور بأننا مستهدفون لمؤامرة دائمة (*) . نحن فى حاجة الى فهم واقعنا كتكوين تاريخى لنحدد أين نقف . ومع من وضد من ، للاستفادة من التاريخ وللتحرر من أغلاله فى الوقت ذاته . وعلى سبيل التخصيص نذكر أن تاريخنا التربوى لم يكتب بعد ، الا فى ضوء ممالة الذات . حقيقة توجد كتب دراسية تسرد التاريخ التربوى فى العالم أو فى منطقتنا ، لكن لم يكتب التاريخ الذى يمكن أن يشكل وعينا التربوى بواقعنا بامتداداته الزمنية المختلفة . يبدو تاريخنا أفقيـا مسطحا على قطع من « الزمن » ، وليس فى سياق تطور مضطرد ، ان وجد تطور حقيقى مضطرد . ولم نحلل أسباب أفقيته ، ان لم نجد التطور الحقيقى المضطرد . لم نكتب تاريخنا سعيا وراء المعرفة الموجهة بأسئلة ايدىولوجية . فنحن لا نضع يدنا على العلاقة التفاعلية بين التربية والسياسة سلـبا وإيجابا ، وبين التربية وتأثير مفكرينا سلـبا وإيجابا ، وبين التربية والظروف الاقتصادية سلـبا وإيجابا . لا نعرف مثلا تأثير نظام الحكم فى تاريخنا على انتشار التعليم وانحصاره فى العصور المختلفة . ومن الذين نالوا حظا من التعليم ومن الذين حرموا منه ، ولماذا ؟ وما تأثير تصنيف العلوم الى مراتب على توجه العقل وتوجه مناهج التعليم ، وارتباط ذلك بالمجتمع ككل . ثم لا نعرف كيف اعاد التعليم انتاج الثقافة بأصالتها وأمراضها ، وتأثيره فى تكوين العقلية الهادمة الحافظة بدلا من العقلية المبتكرة ، وهو تكوين له جذور تاريخية بالضرورة .

كذلك لم تحدث محاولات كثيرة للوعى بواقعنا فى فلسفة تربوية . فما هو موجود تعريف بفلسفات الغرب تختلف فى طريقة كتابتها . فهى اما تقدم من وجهة نظر معينة مثل البرجماتية ، أو تعرض مجموعة فلسفات يترك للقارئ اختيار ما يريد منها ، أو تطوع بعض الفلسفات لتلبسها على الواقع حتى الرسائل العلمية التى يفترض فيها شىء من الابداع مازالت تدور فى فلك المقارنة بين المثالية والبرجماتية والطبيعية ، أو عرض آراء بستالوتزى وجون لوك التربوية . ونبدو بهذا غير مهتمين بمنطق الأولويات : ماذا نريد وماذا لا نريد ؟ ماذا يستحق جهد البحث وماذا يأتى فى مرتبة ثانوية ؟ لماذا المعرفة بوجه عام ؟

وفى غياب التاريخ الخاص والفلسفة يغدو التعامل مع العلم والبحث العلمى بلا ضوابط . وتنتشر ظاهرة « الباحث المحترف » ونقص به من يتعامل مع التربية كعلم على أنها كتلة واحدة لا تنفصل ، ليس بمعنى « وحدة المعرفة » ، ولكن بمعنى أن التخصص فيها أمر غير مجد ولا لزوم له . ولذلك نجد الباحث الذى يكتب فى خمسة تخصصات أو أكثر : فى التربية المقارنة ، وفى فلسفة التربية ، وفى تاريخ التربية ، وفى اجتماع التربية ، وفى التربية الإسلامية ، عدا الدراسات فى نقاط فرعية أخرى . وهذه الموضوعية تقليد مستمر بدأ مع الرعيل الأول للتربية حين كانوا يكتبون فى كل التخصصات بحكم الفراغ الذى كان قائما ، وبحكم الحاجة الى تكوين رصيد معرفى لاعداد المعلم والباحث . لكن استمرار تلك الظاهرة لا يعنى الا الاستخفاف بالمعرفة ، ولا ينتج عنها الا التشوه المفاهيمى ، لأن التوسع على هذا النحو لا يأتى الا بحشد المعلومات مترجمة أو منقولة ، ووصل الفقرات كلما أمكن ذلك دون اهتمام بما وراء تلك المعلومات من ايدولوجيات متعارضة . فنجد الرصيد فى النهاية جعبة متناثرة من المعلومات بلا نسق ، وبلا موقف ، المهم هو غزارة الانتاج وتنوعه .

وعلى الجانب الآخر ، ولكن بصورة أقل ، نجد الباحث «الايدولوجى» الذى يضع جل اهتمامه فى اثبات صحة الرؤية الماركسية أو غيرها فى التربية . ويهاجم كل فكر فيما عدا ما يريد اثباته . صحيح أن الايدولوجية فكر مهاجم لكن للعبة قواعدها الخاصة . فاذا كنا بصدد الهجوم الايدولوجى على نظرية ، فمن الضرورى مهاجمتها فى بنيتها من جوانبها المختلفة على أساس البديل الذى نتبناه : من حيث نموذجها العلمى وفروضها الكبرى وتفصيلاتها المعرفية ومنطقها فى البحث . ومن هذا الصراع الايدولوجى ينمو العلم . أما الهجوم الخاطف على النظريات العلمية بأدانتها بالامبريالية واستلاب الوعى وما الى ذلك فهو خروج عن قواعد اللعبة ، أشبه بازاحة قطع الخصم من على رقعة الشطرنج للانتصار عليه بلا لعب . وغياب التنظير الخاص بنا لا يتيح لنا الكسب مع الالتزام بقواعد اللعب ، وهى أن نهاجم النظريات على أساس معرفى لا على أساس موقفنا الاجتماعى فقط .

نعود للتأكيد بأن تلك أحكام نرى أنها تصدق فى صورتها العامة بلا موارد ، وبلا قسوة على الذات . لكنها ليست صادقة على باحثى التربية

فردا فردا ، ولا يعنى النقد اهدار الجهود الفردية • ولكنها تظل جهودا فردية ،
وذلك لب المشكلة •

نأتى الآن الى السؤال الصعب الذى يواجه كل الدراسات النقدية :
ما العمل اذا ؟

هل تنتظر التربية حتى تتبلور ايدىولوجية عامة للمجتمع فتكون لها
ايدىولوجيتها التى تبني عليها نظرياتها العلمية ؟

وقبل هذا ، هل ننتظر أن نمر بعصر الايدىولوجيات كما مرت به أوروبا ،
وان يسهم العلم الطبيعى فى تشكيل العقل المصرى حتى تتكون لنا ايدىولوجية
ما ، أو أن ننتظر حتى يظهر لنا الايدىولوجيون الكبار ليمهدوا الطريق ،
ولا أن نتقدم لنلحق فى مجال العلم بالمجتمعات التى سبقتنا ويسير التغير فيها
بمعدل أسرع من التغير لدينا مئات المرات • غاية ما نطمح اليه تحديد موقف
من العلم قائم على وعى واضح بواقعنا وبالعالم الذى نعيشه ، لأنه لا توجد
بداية أخرى • وليس تحديد الموقف بالامر الصعب فى هذه المرحلة من تاريخنا •
فنحن نواجه الايدىولوجية الصهيونية ونعرف مخططها الذى لن تحيد عنه ،
ولم تنشأ فى المقابل ايدىولوجية مضادة ، وحسب تناس لفكرة الصراع
الحضارى مع اسرائيل • ونعرف أننا جزء من العالم المقهوم ، ونتصرف وكأننا
جزء من العالم القاهر • ونذكر أن نقص المعرفة جزء أساسى من تخلفنا ،
ونتصور مستقبلنا على أساس الثورة المعرفية والتكنولوجية • ونشهد ثرواتنا
تستلب فى الداخل والخارج ونعيش فوضى الحراك الاجتماعى ، وتستمر
بحوثنا تتناول العاب المحاكاة وقضايا الرسوب والتسرب • وليس المطلوب
أن نتوقف عن البحث لنتفرغ للايدىولوجية ، أو أن نوجه بحوثنا الى التعليم
فى اسرائيل وقضايا العالم الثالث ونقل النظريات العلمية من العالم الثالث
بدلا من الغرب • ولكن المطلوب أن نقف لنعرف من أين نبدأ وإلى أين نسير •
وأبسط الخطوات هى أن نطرح على أنفسنا أسئلة ايدىولوجية لنجيب عنها
اجابات علمية فى ضوء واقعنا الذى نعيشه ، بصرف النظر عن مصادر المعرفة
التي نعتمد عليها •

ليس ثمة حل سريع ، أو توصيات بحلول ، وانما نحاول أن ننظر الى

معرفة التربية في وضع مشكل . ولا يكون ذلك باقتراح مجموعة من المشكلات التي تستحق البحث أكثر من غيرها ، أو توجيه الجهود كلها في سبيل هدف واقعي مثل اصلاح التعليم . ولكن بالتفكير والبحث في الخطوة التي تسبق ذلك ، وهي بناء المعرفة الموجهة بأسئلة ايديولوجية لتتكون لدينا اطار مفاهيمية متسقة . وذلك بأن نطرح على أنفسنا - كمدرسة مصرية - قضايا تحديد موقف في فترة الوعي بالذات التي تضطربنا الاحداث اليها اضطرابا في وقتنا الحالي . ولمزيد من الايضاح نقدم عينة من تلك القضايا على النحو التالي :

— المدخل الأساسي لاصلاح التعليم هو ربطه بالانتاج وبسوق العمل . ومن ثم يجب وضع التعليم في خطة تنمية شاملة لانتاج رأس المال البشرى .

— المدخل الأساسي لاصلاح التعليم هو تنمية وعي المتعلم وتحريره من عملية التطبيع الاجتماعي بالقوة التي تمارسها المدرسة ، ليكون قادرا على تغيير مجتمعه ، وتنمية ابداعيته ، قابلا للتعلم مدى الحياة .

— المدخل الأساسي لاصلاح التعليم هو تنمية الاخلاق لأن الانسان كائن روحاني قبل أن يكون كائنا ماديا واذا صلحت الاخلاق صلح المجتمع .

— المدخل الأساسي لاصلاح التعليم هو تحويله الى تعليم ديمقراطي بحيث تتشكل أجيال جديدة قادرة على تأسيس الحياة الديمقراطية في مصر كأسلوب حياة ، وللتخلص من آفة الاستبداد التي تسيطر على حياتنا عامة .

— لا يوجد مدخل أساسي لاصلاح التعليم لأن تدهوره ناجم عن أوضاع بنيوية اجتماعية واقتصادية معينة تحتاج الى تغيير . واصلاح التعليم في تلك الظروف يعني تكريس تلك الاوضاع واجراء ترقيعات تزيد مشكلاته مستقبلا .

— يحتاج التعليم الى فلسفة شاملة موجهة ذات أهداف واضحة مشتقة من فلسفة المجتمع وتاريخه والمعرفة المتاحة في عصرنا .

— لا يحتاج التعليم الى فلسفة شاملة لأن الفلسفة الشاملة لا توجد
الا فى المجتمعات الشمولية • ولكن ما يحتاجه هو زيادة كفاءته وفعاليته ببحوث
الفعل وتحليل النظم وادخال المستحدثات التربوية •

— يحتاج التعليم الى فلسفة شاملة موجهة وفى الوقت ذاته يحتاج
الى رفع انتاجيته بشتى الطرق والوسائل •

— يحتاج التعليم الى ثورة عن طريق تغيير المفاهيم المسيطرة عليه
مثل مفهوم التدريس والعقاب والتقويم والدافعية والتعلم والمعرفة وطبيعة
الانسان ، دون حاجة الى فلسفة موجهة شاملة •

— يجب تغيير المناهج الدراسية بحيث تكون وظيفة متصلة بحياة
التلميذ •

— يجب الاهتمام بالتركيز على التخصصات العلمية واعطاء قدر
أكبر من المعلومات للتلميذ لأن هذا هو الطريق الى تخريج العلماء كما يحدث
فى اليابان مثلا •

— يجب أن يتعلم التلميذ عن طريق بيئته لأنها العمل الذى ينتج منه
العلم والمعرفة والسبيل الى محو اغتراب التلميذ عن عالمه وسيطرته على
موارد الثروة •

— يجب أن يكون التعليم للابتكار وتكوين العقلية الناقدة ، ومن ثم
علينا أن نلغى المناهج التى توضع مقدما •

— يجب تمهين التعليم ليكون انتاجيا لمحاربة الفقر بطريقة عملية
بتغيير صيغته من تعليم أكاديمى الى تعليم فنى أو صيغة المدرسة الشاملة أو
البولتكنيكية ، أو غيرها من الصيغ العملية •

— يقضى تمهين التعليم على الثراء العقلى ، والمهم هو تكوين الانسان أولا ، والمتقف الذى يعى عالمه ويغير مجتمعه .

— لا تعارض بين تمهين التعليم وبين التنقيف .

— تفريد التعليم هدف يجب العمل على تحقيقه من أجل أن يحقق الفرد ذاته بأقصى ما يستطيع .

— تفريد التعليم لا يتفق وروح الجماعة التى تحرص عليها ، ويمكن أن يهدد التجانس الثقافى .

— يمكن الجمع بين تفريد التعليم وما يجب أن يتزود به كل فرد من الثقافة الأساسية للمجتمع .

— المعرفة التى تقدم فى المدارس الآن تعكس مصالح جماعات القوة المسيطرة على المجتمع فى انتقائها وتوزيعها .

— التعليم عملية نفسية وصناعية محايدة وله منطقه الخاص فيما يجب وما لا يجب أن يعلم ومناقشة المعرفة من وجهة سياسية أضاعة للوقت بلا طائل .

تلك قضايا ساذجة المظهر ولا تصدمنا لدى قراءتها لأننا نألفها هى وغيرها من مئات القضايا التى تتعلق بالتربية . وهى تبدو كشعارات دائمة الترداد فى الكتابات التربوية . لكنها رغم مظهرها البسيط وألفتنا بها بدايات تحديد موقف ايدىولوجى علمى من شأنه أن يؤدى الى انساق فكرية متكاملة معقدة فى التخصصات المختلفة . لأنه بالتداعى المنطقى لابد أن نبحث مئات القضايا المرتبطة بها ، وهذا هو السبيل الوحيد للتخلص من التشوش المفاهيمى . مثلا : لا يمكن الجمع بين اعتناقى لفكرة أن مهمة التعليم تحرير الانسان من عملية التطبيع الاجتماعى بالقوة ، وضرورة وجود فلسفة شاملة للمجتمع وتكثيف المواد الدراسية لتكوين علماء . ولا يمكن أن أرى عيوب التعليم كائنة فى المجتمع الخارجى . وأن اهتم ببحوث الفعل وتحليل النظم .

أو أن اعتنق فلسفة شمولية وأروج لأفكار طوباوية مثل « الفصل المفتوح » .
وذلك أن بدا أمامنا مسألة بدهية على الورق الآن ، إلا أن ما يحدث فعلا هو
تراكم حشد من الأفكار المتناقضة التي لا يمكن أن تكون بنى معرفية متسقة في
بعض الدراسات ، صحيح أنه يمكن التوفيق بين نظريات متعارضة ، والتوفيق
عامل من عوامل نمو العلم . لكن هناك فرقا بين التوفيق وبين القفز فوق
رؤوس النظريات . التوفيق يحتاج الى تخصص في فرع علمي معين ، والتعمق
في النظريات التي يمكن أن نوفق بينها ، لكن القفز فوق رؤوس النظريات
لا يحتاج الا الى النظرة الموضوعية المتعجلة لتلتقي الافكار التي بينها تشابه
ظاهري بلا جذور . لا مفر من الاختيار في العلم بناء على ايدولوجية ترتبط
بموقفنا الاجتماعي ، بعدها فقط يمكن أن يحدث التوفيق ، أو الابتكار . أما
الانفتاح على كل ألوان المعرفة وتقبلها على أنها مفيدة ولا تعارض حقيقي
بينها ، فلا ينتج عنه الا تراب ثقافي ، يتطاير مع أول نفخة هواء ، ويصعب
جمعه من جديد .

مصادر البحث

1. Mannheim, K. (1936), Ideology and Utopia : An Introduction to the Sociology of Knowledge, Trans. Wirth, L. and Shiles, E, N.Y., A Harvest Book, pp. 61-73.
2. Feuer, L.S. (1975) Ideology and the Ideologist, N.Y., Harper and Row, Publishers, pp. 5, 6.
3. Coser, L. (1956), The Functions of Social Conflict, N.Y., The Free Press p. 116.
4. Karier, C.J. (1967), Man, Society and Education: A History of American Educational Ideas, Illinois, Foresman and Co., p. 96.
5. Kinloch, G.C. (1981), Ideology and Contemporary Sociological Theory, New Jersey, Printice-Hall, Inc., p. 9.
6. Feuer, L.S., Op. cit., pp. 17, 18.
7. Manning, D.J. (1976), Liberalism, Lond., Dent & Sons Ltd., pp. 6-14.
- (*) كان صغار الشيوعيين يعادون البننامية ، وكان ماركس ، على عكس انجلز ، يرى بننام نموذجا فذا للغباء البورجوازي ، لانه فيلسوف الجميع ، انظر •
Feuer, L.S., Op. cit., pp. 25-28.
8. Ibid., pp. 29-31.
9. Bell, D. (1962), The End of Ideology : On the Exhaustion of Political Ideas in the Fifties, N.Y. The Free Press, p. L, 05.
10. Karier, C.J., Op. cit., pp. 264, 265.

11. Manning, D.J., Op. cit., p. 81.

(*) أجريت دراسات كثيرة حول الشخصية النازية وهى أساس هام من أسس الهجوم على الايديولوجية من المدخل السيكولوجى . ومن أول الدراسات التى أجريت فى هذا المضمار دراسة أجريت عام ١٩٤٤ على مجموعة من الأسرى الالمان ، تبين أن معتنقى النازية من الالمان يتميزون بخصائص نفسية تختلف عن غيرهم من الالمان الذين لا يعتنقون النازية . وجدير بالذكر أن تلك الخصائص هى نفسها ما يتميز به أبناء الكيبوتزات فى اسرائيل . انظر :

Dicks, H.V. (1964) "Personality Traits and National Socialist Ideas" in : DiRenzo, G.J., Personality and Politics, N.Y., Anchor Press pp. 160-225.

(*) يذكر فؤاد زكريا أن عددا من الماركسيين ، فى الاتحاد السوفيتى خاصة ، فى فترة الثلاثينات يرون أن هناك « علوما طبيعية بورجوازية » ، « وعلوما طبيعية بروليتارية » ، وكانت نظرية النسبية لاينشتين تهاجم على أنها نظرية « مثالية » . وفى عهد سستالين كان عالم الاحياء ليسنسكو Lyssenko هو الحاكم بأمره فى ميدانه ، لأنه عرف كيف يوفق بطريقة لا تخلو من التلاعب بين النظريات البيولوجية وبين الفلسفة المادية الديالكتيكية، ولذلك كانت نظرياته مدعومة بسلطة الدولة ، وكان خصومه على المستوى العلمى ، خصوما للدولة ، يتعرضون للاضطهاد . وفى المانيا النازية ظلت « فيزياء اينشتين زمنا طويلا محل تجاهل من العلماء الالمان لأنه غادر المانيا هاربا من النظام ، مما أدى الى تقدم الانجيلز والأمريكيين عليهم فى هذا المجال ، انظر :

فؤاد زكريا (مارس ١٩٧٨) ، التفكير العلمى ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ص ٢٢٨ .

(*) يكشف ميلز - وهو واحد من كبار علماء الاجتماع الأمريكيين - حقيقة محاولات القضاء على الفكر الايديولوجى ، فيذكر أن مفهوم « نهاية الايديولوجية » هو من صنع مثقفى حلف شمال الاطلنطى الذين اتخذوا من الثقافة مهنة وحرفة ، وقبلوا دعايات حكوماتهم وروجوا لها حتى تحولوا الى مجموعة من الديماجوجيين المستترين خلف الاقنعة الاكاديمية ، انظر :

السيد الحسينى (١٩٨٥) نحو نظرية اجتماعية نقدية ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ص ١٨٦ وما بعدها .

12. Bell, D., Op. cit., p. 401.

13. Mills, C.W. (1973) The Sociological Imagination, N.Y., Oxford Univ. Press, pp. 3, 4.

14. Ibid., pp. 6, 7.

(*) نقصد بالتوبيا الايديولوجية المحافظة السائدة فى المجتمع والنس تقف ضد التغيير . بينما اليوتوبيا هى التصورات المستقبلية للمجتمع .

(١٥) محمد محمود ربيع (١٩٧٩) الايديولوجيات السياسية المعاصرة : قضايا ونماذج ، الكويت ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، ص ٢٢٧ .

(١٦) المصدر نفسه ، صص ٢٦٥ - ٢٦٨ .

وقد وردت عبارة « اقتلوا من الاجانب افضلهم وهشموا الراس بين احسن الافاعى » فى مناظرة جرت فى باريس عام ١٢٤٠ بين المرتد عن اليهودية نيقولاس دونين ، ومفسر التلمود الحاخام يحييل . وما زالت تلك الفكرة العنصرية وما شابهها ركيزة الايديولوجية الصهيونية رغم تخفيها وراء اقنعة علمية وانسانية ، انظر :

أسعد رزوق (١٩٧٠) التلمود والصهيونية ، بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، صص ٥٧ ، ٥٨ .

17. Manning, D.J., Op. cit., pp. 14-16.

18. Coser, L., Op. cit., p. 21.

19. Ibid., p. 31.

20. Ibid.

21. Karier, C.J., Op. cit., pp. 154-156.
23. Ibid., pp. 174-176.
24. Evans, R.J. (1968), B. F., Skinner : The Man and His Ideas (A Dialogue), N.Y., E.P. Dutton & Co., Inc., pp. 30-35 and passim.

(*) يدرس هؤلاء كلهم وغيرهم فى أقسام علم النفس فى كليتنا دون أية إشارة الى الفلسفات أو الايديولوجيات التى تقوم عليها نظرياتهم ، ويعاملون على أنهم علماء وحسب .

(*) تجدر الإشارة الى أن السلوكية امتداد للتيار الفلسفى المادى - فكان هوبز هو الذى وضع مصطلح « الماكينة » ليكون « نموذجاً » لدراسة الانسان : القلب بمثابة البندول ، والأعصاب اسلاك ، والمفاصل عجلات . ويجزم لوك بأن الانسان فارغ من الداخل والخبرة وحدها هى التى تزوده بالأثاث . وتبنى قادة الثورة الفرنسية هذا الاتجاه . وصاغ دى تراسى - الذى وضع مصطلح الايديولوجيا أو علم الافكار - نظريته التى تذهب الى أن جميع الافكار تشتق من الشعور بشكل رئيسى ، وتبعه كوندريك فى تحليله للافكار . وكان هذا الاتجاه سلاحاً فى يد الطبقة الوسطى فى انجلترا وفى يد الثورة الفرنسية فى صراع العقائد السياسية والدينية التى كان النظام القديم يعتمد عليها فى الحكم وتوزيع القوة .

ومن الغريب أن نجد باحثاً يلتزم بالسلوكية منهاجاً ومعرفة فى عملية البحث ، لكنه فى حياته العادية يؤمن بالمعرفة الباطنية والالهام وأهمية العقاب لردع الشر فى الانسان وقدرة الأحلام على التنبؤ ، وهذا يعنى الانقسام ، أو على الأقل تشوه الاطار المفاهيمى لتوزعه بين نصقين متباينين من المعتقدات والأفكار .

25. Bell, D., p. 403.

(*) يقدم محمد عابد الجابرى تفسيراً لأهمية العلوم الطبيعية فى الفكر الفلسفى والايديولوجى عامة ، يبدأ من الفلسفة اليونانية ، فيذكر أنها كانت (دراسات تربوية)

مدارس فكرية تتمايز بنوع من الموضوع العلمى الذى تبنى عليه نسقها الفلسفى . وكان تقدمها مساوقا للتقدم العلمى الحاصل فى فهم الموضوع العلمى الواحد ، أو الناتج عن الانتقال من موضوع علمى ما الى موضوع علمى أعلى درجة على نفس السلم . شواهد ذلك فى تفسير (ديمقراطيس) الذرى للكون ، وفى مبدأ التغير والصيرورة عند (هيراقيطس) ، ونظرة فيثاغورس (الى الكون القائمة على التناسب والتناغم ، واعتباره الوحدة العددية أصل الكون ، وانبهار (أفلاطون) بالرياضيات واشتغاله بها . أكثر من هذا أن منطق (أرسطو) ما هو الا فيزياء اتخذت موضوعا لها الجسم الصلب . ولهذا تعجز مبادئه فى الهوية والسببية وعدم التناقض عن تفسير ما تقدمه فيزياء الذرة من حقائق ، فراح العقل يبحث عن منطق جديد . ثم يظهر الارتباط قويا فى العصر الحديث حيث أسس (ديكارت) فلسفته على الرياضيات والفيزياء بعد أن كانت من قبل من علوم اللاهوت ، ويستلهم (ليبنتز) فى فلسفة الذرات رياضيات النفاضل والتكامل . ثم يؤسس (كانط) فلسفته النقدية على فيزياء (نيوتن) ومفاهيمه النظرية المطلقة ، ويعود (هيجل) الى مبدأ التغير والصيرورة ليحل العقل محل التاريخ ، والتاريخ محل العقل ، ويتطابق بين العقل ونظام الطبيعة من حيث الصيرورة والمصير . ثم تأتى الفلسفات الوضعية المعاصرة لتجعل الفلسفة تابعا للعلم . وحين ازدهرت الفلسفة بازدهار العلم الحديث ، ازدهرت فلسفة التاريخ مع ما حملته من نظريات تعالج التطور التاريخى ومصير الانسان ، واطلق العنان للخيال الاجتماعى ليقدم نظرات جديدة الى العالم .

ويعلل تخلف الفكر العربى بارتباطه مباشرة بالسياسة والعلوم اللغوية والدينية التى ولدت كاملة فى عصر التدوين . وبقي ابن الهيثم وغيره من العلماء خارج بنية العقل العربى لأن أفكارهم بعيدة عن دائرة الصراع السياسى أنظر :

محمد عابد الجابرى (١٩٨٤) نقد العقل العربى ١ : تكوين العقل العربى ، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ص ٢٣ وصفحات متفرقة من ٣٣٤ - ٣٥٠

26. Paulston, R.G. (1978), Changing Educational Systems : A

Review of Theory and Experience, Washington, D.C., The World Bank, p. 17.

(*) يذهب أحد الباحثين الى أن هناك اتجاها لرؤية تاريخنا فى ضوء المؤامرة ، حيث يتآمر الأعداء على تبيانهم لتقويض الحضارة العربية • وهذا التفسير يرجع فى رأيه الى التعصب القومى الذى يجعل من العرب قومية متميزة بشكل استثنائى وأصحاب رسالة أخلاقية تمديدية ، مما يجعل رؤية التاريخ تسير فى اتجاه واحد ، وهو أن العرب أصحاب حق دائما ، وما يقع لهم من أحداث ناتج عن تدبير خبيث ، بينما يكذب الواقع تلك التفسيرات • انظر :

خلدون حسن النقيب (١٩٨٤) « العقلية التآمرية عند العرب » فى : مجلة العلوم الاجتماعية ، العدد الرابع ، المجلد الثانى عشر ، الكويت ، جامعة الكويت ، ص ص ١٧١ - ١٨٣ •